شترزمان

رجل الرهيب

كان الدكتور شترزمان يعرف خطورة المرض الذي يهدد حياته وكان يعلم من اطبائه انفسهم انه لن يعمر اكثر من ثلاث سنوات ابتدأت في الشتاء الماضي وكان منذراً بانه لن يأتي على آخر هذه السنوات الثلاث الا اذا اعتزل مهام منصبه وانصرف الى الاهتمام بمعالجة صحته. ولكنه لم يحفل بانذار اطبائه ولم يكترث لتفاقم مرضه لاستخفافاً برأي اجمع الاطباء عليه أو استهتاراً بآلام مرض اشتدت وطأته، بل رغبة منه في انضي في عمله وعدم مغادرة ميدان الجهاد قبل الوصول الى آخره لا حبًّا بمنصب أعمى بصيرته أو شغفاً بشهوة وهنت أمامها حكمته ولكن تأدية لواجب كان لا يقتأ يشعر بوجوب تأديته ارضاء لنداء ضميره وارتياحاً لصوت وجدانه — فاني لما حظيت بمقابلته في مكتبه بوزارة الخارجية في برلين في آخر شهر يونيو الماضي اخذ يحدثني عن امنية قديمة كان يظن ان المنية تمهله من الوقت ما يكفي لتحقيقها وهي امنية زيارة مصر لمشاهدة اعلامها وآثارها وتمتيع النفس باعتدال اقليمها. فقد قص عليَّ رحمه الله يوماً انه عزم على المجيء الى مصر اربع مرات لامرة واحدة وحدث في مرة منها انه اشترى تذاكر السفر وتأهب للرحيل فعلاً ولكن اعمالاً مستعجلة طرأت عليه في تلك المرة كالاعمال التي كانت تطرأ عليه في كل مرة فمنعته عن السفر. وهنا سكت لحظة ثم حدق اليَّ وقال « واظن انكم ترون معي ان الواجب يجب ان يقدم على كل اعتبار آخر في هذه الدنيا ». وقد ظن هو يقدم الواجب على كل اعتبار آخر الى ان ادركته المنية وهو مكب على معالجة شؤون بلاده الداخلية والخارجية فقضى شهيد الواجب وكان حقًّا على المانيا ان تبكيه كما بكته وعلى صحافة العالم ان ترثيه كما رثته وحسبه فخراً بعد مماته ان تقول عنهُ صحيفة « الديلي هرالد » الانجليزية « من كان يقول لما وضعت الحرب العظمى اوزارها انا ستبكي سياسياً المانياً بعد عشر سنوات كما تبكي الدكتور شترزمان الآن »

السياسي والزعيم

وقد كان الدكتور شترزمان من اصحاب الرأي القائل بانه ينبغي على السياسي ان يختلف اختلافاً عظيماً عن الزعيم بخططه والوسائل التي يتعين عليه ان يتوسل بها لتحقيق اغراضه كي ينهض بالمهام الملقاة على عاتقه بما يعود بالمنفعة على بلاده وبالرفاهية على ابناء وطنه. فبينما

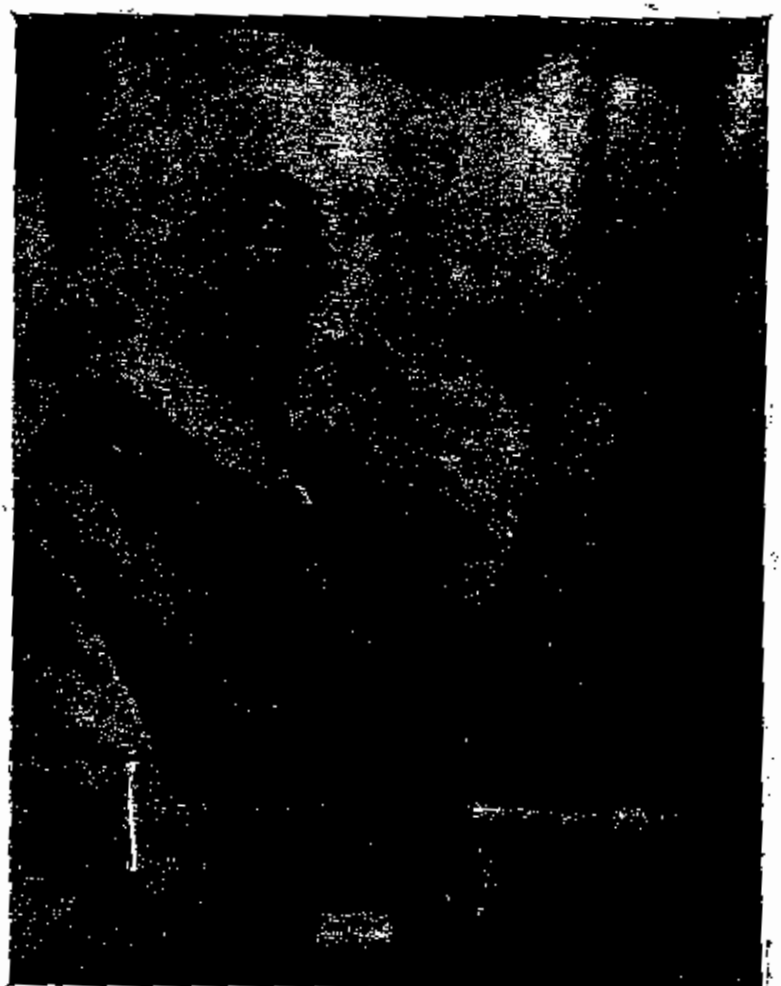

برتراند رسل
الفيلسوف الانكليزي المشهور

مقتطف نوفمبر ١٩٢٩
أمام الصفحة ٧٨٩

رأس تمثال لشترزمان

مقتطف يونيه ١٩٢٩

أمام الصفحة ٣٨٥

شترزمان وتوقيعه

تحت الصورة التي أهداها الى الاستاذ كاتب هذا المقال

[اتيح للاستاذ كريم ثابت ان يسافر في هذا الصيف الى اوربا لمرافقة « المقطم » بابان الرحلة الملكية ذاشهر هذه الفرصة وقابل اقطاب السياسة في البلدان التي زارها امثال السنيور موسوليني والمسيو ماساريك والدكتور شترزمان والدكتور بنش وغيرهم وقد وافانا بهذا المقال عن وزير المانيا الكبير على ذكر وفاته في الشهر الماضي]

الزعيم مضطر في احوال شتى الى مراعاة رغائب انصاره وتكييف تصرفاته بما يطابق شعور شعبه لئلا يحرم من عضده أو يفقد شيئاً من ولائه يتعين على السياسي ان يكون نافذ البصر بعيد النظر فيتنبأ بمصير الحوادث وعواقبها ويعمل في كل ظرف من ظروفها بما يكفل تحقيق النتيجة النهائية على ما تقتضيه مصلحة بلاده وسعادة شعبه ولو أدى هذا المسلك في بادىء الأمر الى نقد خططه والنفور من سياسته

وفي الواقع انهُ لم يكن في الدكتور شترزمان شيء من تلك القوة المغنطيسية التي تجذب الجماهير اليها فكان يفتقر والحالة هذه الى اول صفة من الصفات الجوهرية اللازمة للزعامة الحقيقية. فقد كان ربعة القامة ممتلىء الجسم اصلع الرأس كبير الوجه بتنفخ الخدين أشقر الحاجبين والشاربين اخن الصوت قليلاً. وقد تبين لي من كلامه معي انهُ ليس المانيًا بشكله فقط ولكنهُ المانيٌ بطبعه وبحديثه ايضاً فانهُ كان في حفاوته غير متصنع وفي جلسته وحركاته غير متكلف وكان حديثه بسيطاً صريحاً لا تجد فيه اثراً للتزويق والتمويق وكان لا يعرف من المجاملة الاَّ ما تقضي به آداب المجاملة — فرجل كهذا وان كان لا يستطيع ان يصير زعيماً الاَّ ان من شأنه ان يكتسب حالاً ثقتك باقواله لانك تطمئن فوراً الى صراحته وترتاح الى بساطته. فلا غرو اذا كان قد عرف كيف يفوز بثقة ساسة الحلفاء حتى حملهم على الموافقة على دخول المانيا في جمعية الامم واشتراكها في معاهدات السلم واهمها معاهدة لوكارنو. وكان بعدُ مسألة قبول المانيا في سلك جمعية الامم اكبر مرحلة خطتها المانيا بعد الحرب العظمى في سبيل استرداد المقام الذي كانت تتبوأه قبلاً في عالم السياسة الدولية ولذلك كان يعلق فوق مكتبه نص التلغراف الذي ارسلهُ اليه السكرتير العام لجمعية الامم ليبلغهُ فيه نبأ قبول المانيا في سلكها. غير انهُ اذا كانت الثقة التي كان الدكتور شترزمان يولدها في نفوس عارفيه وسامعيه قد خدمته أجل خدمة في الاتفاق مع الحلفاء على تسوية مشاكل المانيا الخارجية فان تطبيق رأيه القائل « بان ينبغي على السياسي ان يختلف عن الزعيم بخططه وتدابيره » اضرَّه حيناً من الزمن وكاد يفضي الى اغتياله في وقت من الاوقات أي قبل ان يدرك الالمان حقيقة مرمى سياسته ويقدرون تانجها حق قدرها. ويقول كبار الكتاب الاوربيين ان هذه الصفحة في حياة شترزمان هي اعظم صفحات سيرته وأغرها

لوكارنو

فانهُ لما تقلد الدكتور شترزمان منصب وزارة الخارجية في حكومة بلاده من نحو سبع سنوات رأى ان المانيا لا تستطيع ان تجاهد في سبيل استرداد المقام الذي كان لها قبل الحرب العظمى في اسواق العالم التجارية ما لم يسد جوّها الهدوء والسكينة وإذهب الى ان هذا الوطر لا يدرك الاَّ اذا سويت العلاقات بين المانيا والحلفاء تسوية نهائية على اساس العدل والانصاف سواء كان ذلك من الوجهة السياسية أو من الوجهة المالية والاقتصادية. فاذا تم لالمانيا اجراء هذه التسوية كما تمنى غدت في حالة تستطيع فيها ان توجه كل جهودها الى استرداد ذلك المقام المنشود . ولما ايقن ان هذه السياسة هي الخطة الرشيدة التي يجب عليه انتهاجها لمصلحة بلاده قرر المضي فيها مهما كلفهُ ذلك من جهد ومشقة وتضحية

وأخذ من ذلك الحين يتحين الفرصة الملائمة لشروع في تحقيق خطته الى ان كانت اوائل سنة ١٩٢٥ فأرسل الى دول الحلفاء مذكرة سياسية قال فيها انهُ يقترح ابدال الضمانات العسكرية التي اتخذها الحلفاء في بلاد الرين وعلى حدود المانيا باتفاقات دولية تعقد بين الفريقين ثم ختم مذكرتهُ بقوله انهُ في الاستطاعة ايضاً البحث في عقد ميثاق لتأييد السلم تشترك في امضائه الدول التي ترغب في احلال الوفاق محل الشقاق . فكان لهذه المذكرة وقع عظيم في بلدان الحلفاء ولاسيما لندن ووشنطن وفي باريس نفسها فاغتبط شترزمان بوصوله الى النتيجة التي كان يسعى اليها وهي ان يثبت لشعوب تلك البلدان حسن نية المانيا واستعدادها للتعاون معها على تعزيز السلم في اوربا . وكان من نتيجة المساعي التي بذلها بعد ذلك ان قرر وزراء الخارجية البريطانية والفرنسية والايطالية والالمانية الاجتماع في لوكارنو للبحث في مشروع الميثاق الجديد الذي اقترح الدكتور شترزمان عقده

ولكن الجانب الاكبر من الشعب الالماني لم يدرك في بادىء الامر الغاية الحقيقية التي يهدف اليها الدكتور شترزمان ويسعى بكل قواه اليها فأنكر سياسة « المسالمة » انكاراً شديداً حتى ان بعض شعب الكتلة الوطنية ذهبت الى اتهامه بالتساهل في حقوق البلاد فهاج عليه الرأي العام ورماه بالخيانة العظمى وحملت عليه الصحف المناوئة لسياسته حملة شعواء زادت في اثارة الخواطر حتى ان ولاة الامور خشوا على سلامته فاحاطوه برجال الحفظ والبوليس السري في غدواته وروحاته وكتموا مواعيد اسفاره وتنقلاته — كل ذلك والدكتور شترزمان مصرٌّ على المضيّ في السياسة التي اعتقد ان فيها مصلحة المانيا مهما كلفه الامر مع ان الجرائد كانت قد بالغت بوشنر في التهجم عليه وطلبت محاكمته امام محكمة الدولة العليا فلم يبال بهذا الاتهام الشنيع اكثر من مبالاته بصحته

ولما ذاع في المانيا نبأ انعقاد مؤتمر في لوكارنو لامضاء الميثاق الجديد الذي عرف بميثاق لوكارنو اشتد هياج الوطنيين الالمان خاف ولاة الامور عاقبته فأمسكوا عن اعلان موعد سفر الدكتور شترزمان الى لوكارنو وأحاطوا محطة سكة الحديد بالحرس ومنعوا الناس من دخولها وبثوا رجال البوليس السري في القطرات يفتشون مركباتها ويراقبون ركابها وقبل ان يغادر الوزير مدينة برلين بوقت قصير اكتشف ولاة الامور مؤامرة سياسية لاغتياله فأبى ان يرجىء سفره غير انه لما وصل به القطار الى الحدود السويسرية رضي ان ينزل منه وان يستانف سفره مع سائر المندوبين الالمان الى لوكارنو بالسيارات

جمعية الامم

وأفضى امضاء ميثاق لوكارنو الى دخول المانيا جمعية الامم مع موافقة الدول على التحفظات التي ابدتها فاطمأن الجمهور الالماني الى سياسة وزير خارجيته بعض الاطمئنان فلما اعلن بعد ذلك ان المانيا تتهيأ فرصة انتظامها في سلك الجمعية لتجاهر بانها ليست مسؤولة عن تبعة الحرب زالت المخاوف التي كانت تساور الجمهور وبدأ يرتاح الى سياسة وزيره فلما خطا خطوته الثالثة طالباً اعادة النظر في مسألة التعويضات وعقبها بخطوته الرابعة طالباً وضع حد لاحتلال الحلفاء لبلاد الالمانية المحتلة انقلب سخط الجمهور عليه الى ارضاء عن سياسته والثناء عليها اذ ادرك الالمان في تلك الساعة ان وزيرهم المحنك لم يكن يقل عن اكثرهم تحمساً ووطنية واخلاصاً وانما اراد ان يأخذ سياسة الحلفاء باللين والحسنى ليحقق اغراضه في جو يسوده الوفاق والوئام . فأجلوه واحبوه وبدأوا يقابلون بعض صفاته بالصفات التي امتاز بها بسمارك الكبير . وصفوة القول ان الدكتور شترزمان اصبح من ذلك اليوم يعتبر منقذ المانيا من المشكلات الخطيرة التي واجهتها بعد الحرب العظمى واكتسب في قلوب الالمان منزلة لم يعهد مثلها من قبل الا بسمارك الكبير

ولما كان الدكتور شترزمان قد اهتم بمسألة دخول المانيا لجمعية الامم ذلك الاهتمام الكبير عنَّ لي ان اسأله هل يعتقد ان الجمعية ستوفق الى تحقيق غايتها فأجابني بقوله :

« ان مهمة جمعية الامم محفوفة بالصعاب ولكن كل محب للانسانية يتمنى نجاحها ولا شك في ان الجمعية قد تقدمت تقدماً محسوساً يبعث على الارتياح وعندي ان جمعية الامم تسدي الى الدول خدمة جليلة تضاف الى الغاية الكبرى التي تسعى لها وذلك انها تتيح لساسة الدول المشتركة فيها فرصة الاجتماع بعضهم ببعض حول طاولة واحدة فيتجاذبون اطراف الحديث في مقام متساوٍ وفي جو يسوده السلام والصفاء فتساعد تلك الاحاديث في كثير من الاحيان

على حل مشكلات وازالة التباسات قد يتفاقم امرها اذا ظل كل فريق قابعاً في عفر داره ولا يسعى الى الوقوف على وجهة نظر غيره وآرائه ولا يعنى هو من جهته ببسط وجهة نظره والادلاء بانكاره. وصفوة القول اني اعلق شأناً خطيراً على مثل هذه الاجتماعات والمحادثات لاعتقادي انها كبيرة الفائدة بعيدة الاثر وأرى ان السياسة ليست علماً موضوعاً له اصول ثابتة وقواعد معينة بل هي مرهونة بحكم الاحوال وعندي ان الوقت يعالج احياناً مسائل خطيرة تعجز جبابرة العقول عن معالجتها قبل حلول الاوان الطبيعي لحلها. فالسياسي الماهر هو الذي يعرف كيف يعطي الزمان حقه حتى اذا فعل الوقت فعله عرف كيف ينتهز الفرصة ويستفيد من الانتظار في الاوان المناسب »

علمه وأدبه

وأرى ان هذا البحث الوجيز في سيرة الدكتور شترزمان لاينكتمل الا اذا تناول بعضاً من نواحيه الشخصية ومن ذلك ان عارفيه يقولون ان ميله الفطري الى العزلة عن الناس والايجاز في الكلام بدأ يتجلى فيه منذ نعومة اظفاره فانه كان وهو حدث لا يتجاوز الخامسة عشرة من عمره يفرُّ من المجتمعات والمنتديات ليخلو بنفسه في زاوية من زوايا بيته فيمضي الساعة تلو الساعة في المطالعة او التأمل والتفكير حتى ان اهله ما عدا والدته كانوا يعنفونه على هذا السلوك الشاذ. اما والدته فكانت الشخص الوحيد الذي ادرك حقيقة خلقه وثمنه بعطفه ووعاه بحنانه

وجاء ذكر الرياضة البدنية في حديث الدكتور شترزمان معي فقال انه لا يمارس ضرباً من ضروب الرياضة. ثم ذكر فجأة انه يمقت الملاكمة مقتاً عظيماً فسألته بتهاً عن سبب مقته لها فأجاب بقوله « لا اعلم. وكل ما أعلمه هو اني اكرهها. واني افضل الآداب عليها » وقد كان رحمه الله من المولعين « بجوتي » الشاعر الالماني الكبير وكان يختلس دائماً اوقات فراغه ليعكف على المطالعة في كتاباته ومنظوماته وقد وجد من نحو سنتين الوقت الكافي رغم مهامه الكثيرة ليعد محاضرة شائقة عنه القاها في النادي الذي ينتسب اليه على مسامع جمهور من الادباء الالمان. وكان من المعجبين ايضاً بشكسبير وقد ظلَّ حتى السنوات الاخيرة يحضر بانتظام كل محاضرة تلقى عنه في برلين وكان لكتابات « ماكولي » منزلة رفيعة في نفسه لايقل شيء اعجابه بمؤلف « فولتير » المسمى « محمد »

كريم ثابت